

## أصل أسمائي المستعارة



Golconda لغاريت (رَبَّتْ عَلَيْهِ قَعَالُ) - 1953

فرناندو  
بيسوا\*  
ترجمته  
نزار أغري

وضعت في كاييرو كل طاقتي الدرامية في نزع الشخصية، وفي ريكاردو ريبس وضعت كل انضباطي الذهني، مصاعاً في القلب الموسيقي الذي يناسبه، وفي ألفارو دي كامبوس وضعت كل الشحن العاطفي الذي أتجنبه عادة سواء في شخصي أو في طريقة عيشي. فتأمل، عزيزي كاسياس مونتيرو، أن هؤلاء ينبغي أن يكونوا، في حال النشر، بدائل عن فرناندو بيسوا، ملوثين وبسطاء. الآن أريد أن أجيب عن سؤالك حول أصل أسمائي المستعارة. وسأرى إن كان في مقدوري أن أجتري جواباً شافياً.

أبدأ من الجانب السيكولوجي. أصل أسمائي المستعارة هو في الأساس جانب من الهستيريا التي تقع في أعماقي. لا أعرف بالضبط إن كنت هستيرياً عادياً أم أنني هستيري هزيل عصبي. أرجح الفرضية الثانية، لأن شخصيتي تنطوي على مظاهر من الكسل لا تعتبر عادة من أعراض الهستيريا بمعناها الدقيق. وبناء على ذلك، فإن الأصل الذهني لأسمائي المستعارة يكمن في نزع عضوية راسخة لدي نحو نزع الشخصية والتكلف. هذه الظواهر، لحسن حظي وحظ الآخرين، تتمظهر في النشاط الذهني. أعني أنها لا تتجلى في حياتي العملية، على السطح ومن خلال الاحتكاك مع الآخرين، بل هي تنفجر في داخلي وأنا أضطدم بها لوحدي. فلو كنت امرأة (في المرأة تنبثق الظواهر الهستيرية على شكل هجمات وما شابه)، فإن كل قصيدة لألفارو دي كامبوس (أو، لي، بطريقة هستيرية أكثر هستيرية)، سوف تتسبب في إثارة الشعب في الجوار. ولكنني رجل، والهستيريا عندنا نحن الرجال تأخذ طابعاً ذهنياً، ولهذا فإن الأمر ينتهي بالصمت وكتابة الشعر.

هذا يفسر، إلى حد كبير، الأصل العضوي لأسمائي المستعارة. والآن سأروي القصة المباشرة لأسمائي المستعارة. أبدأ بأولئك الذين ماتوا، وبالعكس ممن لم أعد أتذكرهم. أولئك الذين ضاعوا في الماضي البعيد والمنسي إلى حد

كبير من طفولتي. منذ طفولتي، كانت تحركني رغبة عميقة في أن أصنع حولي عالماً خيالياً، محاطاً بأصدقاء وأقارب لا وجود لهم. (لا أعرف، بالطبع، هل حقاً لم يكن لهم وجود أم أنني، أنا لم أكن موجوداً. في أمور كهذه، وفي غيرها من الأمور، ينبغي ألا نكون دوغمايين). بما أنني أعرف نفسي باعتباري الشخص الذي هو أنا، فأنا أتذكر أنني تأكدت من خلال الملامح والحركات والهيئة والتاريخ من أن أثبت ذهنياً العديد من الشخصيات غير الحقيقية التي كانت بالنسبة لي مرئية على قدم المساواة مع أولئك الذين نعتبرهم من الواقع الفعلي بالرغم من أننا قد نكون مضللين في ذلك. هذه النزعة، المترسخة عندي منذ أن وعت على من أسميه «أنا»، ظلت ترافقني وتخدم قليلاً تلك الموسيقى التي تسحرني دون أن تخفي طبيعتها في أن تسحرني.

وهكذا فأنا أتذكر ما يمكن أن يعتبر اسمي المستعار الأول، أو بالأحرى صاحبي الأول الذي لا وجود له، وهو شوفالييه دي با، وكان عمري ست سنوات، حيث بعثت برسائل منه إلي، وما زالت شخصيته، التي لا يلفها الغموض بشكل كلي، تستحوذ على الجانب المكرس للحنين من عاطفتي. كذلك أتذكر، بشكل أقل وضوحاً، شخصية أخرى لا أتذكر اسمها، باستثناء أنه كان هو أيضاً غريباً وكان، لا أعرف كيف، غريباً لشوفالييه دي با. هذه أشياء تحدث لكل الأطفال، أليس كذلك؟ ربما. وربما لا. ولكن في تلك الفترة قد تأثرت بهم، وما زلت أثار بهم، لأنني أتذكرهم بطريقة تستدعي بذل الكثير من الجهد لكي أقتنع أنه لم يكن لهم وجود.

هذا الميل لإحاطة نفسي بعالم آخر، مساو لهذا العالم ولكن مع ناس آخرين، لم يغادر مخيلتي قط. وهو مر بمراحل عديدة بما فيها المرحلة الراهنة التي تحدث الآن في سنوات نضوجي. داهمني إحاح روحي، غريب كلياً، لسبب أو آخر، بخصوص ما أكون أو ما يفترض أن أكون. تكلمت إليه، مباشرة، وبشكل عفوي، كما لو كان أحد أصدقائي وهيأت له اسماً ووضعت له تاريخاً،

نفسه. ومن الأصح القول إن هذا كان رد فعل فرناندو بيسوا على لا وجوده المتمثل في البيرتو كاييرو. مع ظهور البيرتو كاييرو حاولت بشكل غريزي ولا واع، أن أجد له تلاميذ. وهكذا من قلب وثنيته المزيفة، أخذت ريكاردو ريبس الخمول، الذي أوجدت اسمه وألبسته إياه، إذ سبق أن رأيته هناك في تلك المرحلة. وفجأة، وبالصدم من ريكاردو ريبس، نهضت من أعماقي وبشكل متهور شخصية جديدة. انبثقت، فجأة، من بين حروف الآلة الكاتبة، ومن دون انقطاع أو تصحيح، «الأنشودة المظفرة» لألفارو دي كامبوس. الأنشودة للجنون والأسم للرجل.

ثم انشأت طغمة لا وجود لها، ونظمتها كلها في مراتب فعلية. وعمدت إلى قياس العلاقات المتبادلة والدخول في صداقات وصرت أسمع في داخلي نقاشات وأراء متصارعة، وفي كل هذا يبدو لي أنني أنا، بوصفي خالق هذه الأشياء، كنت الأقل حضوراً. يبدو أن كل شيء كان يسير بمعزل عني. ويبدو أن الأمور ما زالت تسير على هذا النحو. إذا أتيت لي يوماً أن أنشر السجلات الجمالية التي جرت بين ريكاردو ريبس وألفارو دي كامبوس، فسوف تلاحظون الفرق بينهما وتدركون أن لا علاقة لي بالأمر.

وعلى الفور رأيت في داخلي هيئته وجهه، قوامه، وسلوكه. وهكذا فقد خلقت العديد من الأصدقاء والمعارف ووضعتم لهم ذرية، مع أنه لم يكن لهم وجود قط على أرض الواقع، ولم أزل حتى اليوم، بعد مرور ثلاثين سنة تقريباً. أسمعتهم وأحس بهم وأراهم. أكرر: أسمعتهم وأحس بهم وأراهم، وأتلقى منهم التحيات.

حوالي عام 1912، إن لم أكن مخطئاً (وهذا ما أشك فيه كثيراً)، خطرت لي فكرة أن أكتب عدة قصائد ذات طابع وثني. خربشت بعض الأشياء بصيغة الشعر الحر (ليس على طريقة ألفارو دي كامبوس ولكن بأسلوب نصف عادي إلى حد ما) ومن ثم تخلت عن المحاولة. ولكن في تلك الخريشة الغامضة، عثرت على الملامح الأولية للشخص الذي كان يكتب. (من دون علمي، كان ريكاردو ريبس قد ولد).

بعد سنة ونصف أو سنتين، أتذكر أنني تلقيت التحدي من سا كارنيرو: أن أخلقه في هيئة شخصية ريفية معقدة إلى حد ما وأقدمه للناس، لا أذكر على وجه الدقة كيف، ولكن على أساس أنه كائن فعلي. اشتغلت عدة أيام عليه، غير أنني لم أفجح. اليوم الذي رفعت يدي عنه، وكان ذلك في 8 آذار (مارس)، 1914. جلست إلى طاولة عالية وأخذت ورقة وبدأت أكتب، واقفاً، كما أفعل دوماً حين تواتيني الفرصة لذلك. وكتبت حوالي ثلاثين قصيدة، واحدة بعد الأخرى، في نوع من الانخفاف، دون أن أعرف ماهيتها. كان يوماً مظفراً في حياتي، ولن أصادف مثله مرة أخرى أبداً. بدأت بالعنوان: حارس الغنم. وتبع ذلك انبثاق شخص من داخلي أسميته، منذ ذلك الحين، البيرتو كاييرو. أستحيك العذر لسخافة الجملة: من أعماقي نهض سيدي. كان هذا رد فعلي الفوري. وهكذا لم أكد أنني تلك القصائد الثلاثين حتى أسرع لتلقف المزيد من الأوراق ومضيت أكتب، دون توقف هذه المرة أيضاً، القصائد الست التي شكلت «المطر المائل» لفرناندو بيسوا. دفعة واحدة وبالتمام والكمال. كان هذا إيذاناً بعودة فرناندو بيسوا، عودة البيرتو كاييرو إلى فرناندو بيسوا

صفحات الإبداع من تنسيق:  
أحلام الطاهر

عشر من تشرين الأول (أكتوبر) عام 1890 (في الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر، كما أخبرني فيريرا غوميز، وهذا صحيح فقد تأكدت من ذلك من خلال القيام بعملية تنجيم تلك الساعة). وكما تعرف، فإنه كان مهندساً بحرياً (في غلاسكو) وهو يعيش الآن هنا في ليشبونة، عاطلاً عن العمل. كان كاييرو متوسط القامة، ومع أنه كان نحيفاً فإنه لم يظهر نحيفاً كما كان عليه في الواقع. ريكاردو أقصر إلى حد ما، ليس كثيراً، وهو قوي البنية، وشرس. ألفارو دي كامبوس، طويل القامة (يبلغ طوله 175 سنتيمتراً، أطول مني بسنتيمترين)، رهيف القد مع ميل بسيط إلى الانحناء. كلهم حليقو الذقن: كاييرو شاحب الوجه، لا لون له، عيناه زرقاوان. ريبس بني غامض اللون. كامبوس يتأرجح بين اللونين الفاتح والغامق، نموذج غامض للبرتغالي اليهودي، ولهذا شعره ناعم وغالباً ما يفرقه إلى جنب، ويرتدي نظارة وحيدة العدسة. لم يترك كاييرو، كما قلت، تعليماً ذا شأن. المرحلة الابتدائية فقط، توفي أبوه وأمه في وقت مبكر فاضطر إلى ملازمة البيت حيث عاش على الدخل الذي كانت تدره بعض الأملاك. عاش مع إحدى خالاته من جهة الأم. ريكاردو ريبس كان طبيباً، كما ذكرت، واستقر في البرازيل منذ عام 1919 ولكنه تعرض للترحيل بسبب ميوله الملكية، وهو غداً لاتينياً نتيجة التدريب المدرسي ونصف هيليني بجهوده الخاصة. ألفارو دي كامبوس كان تلقى تعليماً عالياً. سافر إلى أسكوتلندا لدراسة الهندسة، الميكانيكية في البداية، ومن ثم البحرية. في إحدى العطلات، رحل إلى الشرق ومن هناك استمد «أكل الأفقون». قام أحد أعمامه، وكان قسيساً، بتعليمه اللاتينية.

كيف أعمد إلى الكتابة تحت هذه الأسماء الثلاثة؟ كاييرو، بمحض إلهام صاف وغير متوقع، من دون أن أعرف أو أقصد ما سوف أكتبه. ريكاردو ريبس، بعد نوع من التداول المجرى الذي سرعان ما يتجسد في أنشودة. كامبوس، حين تعتريني رغبة مفاجئة لأن أكتب ولكنني لا أعرف ماذا أكتب. اسمي النصف مستعار، برناندو سواريس، الذي يشبه ألفارو دي كامبوس من عدة أوجه، يبدو على الدوام متعباً أو نعساناً، بحيث تتعطل إلى حد ما قواه في المحاجبة أو التخمين. هو يكتب نثراً في حالة من الحلم النهاري الدائم. وهو نصف اسم مستعار لأنه، كونه لا يشكل شخصية بالنسبة لي، لا يختلف عني كثيراً بل هو مجرد انعكاس مشوه لشخصيتي. إنه أنا، لكن بقدر أقل من العقلانية والعاطفة. (إنه) نثر، باستثناء ما يخفف العقل من عبثه في داخلي (...). مساوياً لي، هو ولغته البرتغالية، سيان بالكامل. وبقدر ما يتعلق الأمر بهذا الجانب، فإن كاييرو يكتب ببرتغالية رديئة، وكامبوس، بعقلانية مشوبة بالثغرات، مثلاً عندما يستعمل كلمة بذاته بدلاً من بنفسه، الخ. وريبس أفضل مني ولكن تسيطر عليه مسحة طهرانية أجدها مبالغاً فيها. يصعب علي أن أكتب النثر. غير المنقح، الذي يكتبه ريبس أو ذاك الذي يكتبه كامبوس. التعبير بالشعر أسهل لأنه أكثر عفوية.

\* من رسالة إلى أدولفو كاسياس مونتيرو، المؤرخة في 13 كانون الثاني (يناير) 1935.